على هامش معالم التقريب *

الطريق إلى المساواة

من الحقائق التى يلتفت إليها التقريب، أنه كلما زاد شعور الإنسان بحريته وبقيمتها - زاد شعوره بالارتباط بما اختاره، وشعوره أيضا بالتبعية والمسئولية، والعكس صحيح .فإذا خفت أو ضؤل أو انحط شعور الإنسان بقيمة حريته - تضاءل وتقلص شعوره بالتبعة والمسئولية .

والمسلم قد اختار الله ورسوله، وكلما زاد شعوره بهذا الاختيار - زاد بالله تعالى وبرسوله عليه السلام ارتباطا . وكل حياة المسلم بسوى تتساند وتتعاون بكل عناصرها وتفاصيلها على تقوية هذا الشعور بالارتباط ودعمه وتوكيده .. فلا يكف ذكر وتذكر المسلم لربه عز وجل .. ولا يكف عن تلبية أصداء هذا التذكر فى عمله وسلوكه وتعاملاته .. وهذا التذكر الدائم لهذا الرباط ولقيمة حرية المسلم ومسئوليته وأهميته .. هو شيء أساسى لفهم وتطبيق فكرة المساواة كما هى موجودة فى القرآن المجيد والسنة النبوية .

وهذا الشعور الصادق، هو الذى يبعد صاحبه عن التعلق بالتهافت والتكالب على كل مظاهر وصور وأشكال الشهرة والصيت والإعجاب والمراتب والألقاب وما إلى ذلك من مظاهر التميز والاستعلاء .. وبالتالى يبعد روح المؤمن عن الآثار والنتائج المترتبة على هذه الفروق بين الآدميين، ويبقى ضمير الإنسان وروحه

---

* العلم ٢٠١١/٢/١٧

وعقله من التهافت على مثل هذه الأشياء، ويحمى من ثم باطنه وسريرته من الفساد وتخريب روحه وحريته .

واختيارنا لله عز وجل، لا يبقى اختياراً من طرف واحد، وإنما يلاقى ترحيبا وتشجيعا وتوفيقا من الله جل شأنه .. وهذا الشعور هو الذى يسكن نفوسنا ويجنبنا القلق الذى يشوش على شعورنا بالحرية والوحدة، ويغرقنا فى الصوارف وفى الغفلة والنسيان والهروب وعدم المبالاة !

إن المسلمين يتلقون ـ كل حسب حاله ـ مدداً خاصا من الله تبارك وتعالى، يحسه المنعم عليه فى نفسه فيضاً من النعمة أو الفضل أو البركة أو التوفيق أو اللطف أو الستر أو العناية . وحين يختفى فى فؤاد أحد ما شعوره بهذا الارتباط الشخصى بمولاه عز وجل، يكون قد غلب على أمره وضل طريقه حين غلبه هواه، ولا نجاة له إلا بالتوبة وتجديد بيعته والعودة إلى رحاب ربه ولطفه وعنايته ورحمته .

يلفتنا محمد عبد الله محمد إلى أن المسلم المكلف لا يواجه الله عز وجل بإرادة ذاتيه مستعلية تعارض أوامره سبحانه ونواهيه .. فالإرادة التى لا تتقيد بذلك إرادة ضالة مرفوضة .. والإسلام حريص على ألا يكون للمسلم ظاهر يخالف باطنه، أو إرادة خاصة مخبوءة يحتفظ بها لنفسه وأخرى يواجه بها الله تعالى والآخرين . يهتم الإسلام بألا يعيش المسلم بإرادة مزدوجة يتسرب بازدواجها فى روحه وضميره ـ النفاق والجبن والرياء .. ومراد الإسلام كسر هذا الازدواج الخطر والانفصال بين قلب الإنسان بين سلوكه الخارجى الذى قد تفرضه ظروف غير قائمة على الحق والولاء له .. وتؤدى من ثم إلى السقوط فى التفاهة وما لا يسيغه أو يقبله الإسلام .

يعود بنا محمد عبد الله محمد - بعد ذلك - إلى الحديث فى مسألة الفروق بين البشر وانقسام الناس إلى قلة وكثرة، وإلى ظاهرة استعلاء البشر بعضهم على بعض، واصطناع العظمة والأبهة بعضهم على بعض .. فيلاحظ أن دين الله يدين أولا وفى الدرجة الأولى الأقوياء الذين منهم وفيهم دائما أصحاب النفوذ والسلطة والغنى والمكانة، وفى يدهم تصريف وترتيب أمور الضعفاء أو المحكومين وتوجيه حياتهم العامة والخاصة .. وكذلك نجد أن عناية الإسلام البالغة فى التعليم والتأديب والتهذيب والمراقبة ... إلخ - موجهة أولا وفى الدرجة الأولى إلى أولئك الأقوياء باعتبارهم الكبار أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة .

والقرآن المجيد يخاطب ويجادل ويفحم ويلحم فى الدرجة الأولى، أولئك الكبار والأقوياء .. وإليهم يسوق وعيده وتنديده ..وإليهم فى الدرجة الأولى - يتوجه إعجاز القرآن الحكيم، وعليهم انسابت ألفاظه وآياته المعجزة .

لم ولن يتغير القرآن بما حمله وسوف يبقى حاملا إياه إلى آخر الزمان، ولكن الناس هم الذين تغيروا ويتغيرون .. فبعد أن كان القرآن فى عنفوان الدين مدرسة صارمة لتعليم الأقوياء .. يلتزمون حدودهم صدوعا لما أمر به، ابتعد هؤلاء بعد زمن الرسالة والراشدين - عما جاء به القرآن المجيد، وعطلوا دوره فى رعاية الضعفاء بضبط حياة الأقوياء وسلوكهم وتصرفاتهم .. ولم يعد هؤلاء الأقوياء يتعاطون منه إلا بلاغته دون هدايته .

ومع تعطل الاستجابة لتعاليم المدرسة الصارمة التى أقامها القرآن المجيد لتعليم وتقويم وتوجيه الكبار والأقوياء، تعطل عمل السدود التى أقامها القرآن والسنة فى وجه عدم المبالاة .

والمتأمل منا يجد أننا وآباءنا من قبلنا إلى أجيال عديدة، نقف من الدين مواقف مختلفة، منها مواقف الأقوياء والمترفين الذين لا يجاوزون البحث والنظر كميدان للرياضة والنشاط الذهنى والفنى - إلى "المبالاة " الواجبة بالإنسان الذى سيسألهم الله تعالى عن موقفهم منه وما قدموه له . ومنها مواقف الخائفين من مسائل الدين الذين يتجنبون الاقتراب منها حتى لا تورطهم فى التبعات والمسئوليات . ومنها موقف الذين يشعرون أن حياتهم فى حاجة شديدة إلى الإيمان والإسلام، ويجدّون بكل قواهم فى السعى لإشباع هذه الحاجة إشباعا حقيقيا .. وهؤلاء هم معقد الرجاء وأمل دعوة التقريب.

أهم ما يجب الالتفات إليه، أن تفشى " عدم المبالاة " بالروابط الإنسانية مرجعه فى الواقع والحقيقة إلى بنية الحضارة الحديثة الحالية التى ساد فيها منطق التجريد حتى فى الألعاب، وتقوم على إخضاع الإنتاج بالمعنى الواسع لهذه الكلمة للعقل وحده، أو ما يسمونه بعقلانية الإنتاج، وهى منطق صارم لا يقيم وزنا ولا يبالى بالروابط الإنسانية، ويتجاهل الإنسان ويحوله إلى شيء، وينظر إليه نظرته إلى الأشياء، ومن أخطر ما فى عملية التشييء - دفع الناس إلى الازدحام المادى، وضعف شعور الإنسان العادى بقيمته بل بذاته، وتعوده على قبول الإحساس بالضآلة .. ضآلة إرادته وعواطفه وقيمته، فتسترضى عنايته بما معه من الأخلاق والدين، ومن أسف فإنه صاحب هذا الاختزال الشديد - تقلص مستمر فى الشعور بالواجب والمسئولية، وتراجع وهبوط قيمة هذا الشعور فى جدول القيم التى يهتم بها إنسان هذا العصر !!